الخطاب

عبدالرحمن أحمد توفيق ـ مصر

خرجت للتو من عيادة الطبيب، لقد صارحني بحقيقة حالتي المرضية التي عانيت بسببها طويلا دون فائدة، أخبرني دون مواربة بأنه لا يوجد أمل في علاجي من تلك الهلاوس التي تصاحبني أينما ذهبت، توجهت صوب الشارع وإلى جواري صديقي الخيالي " ضفدع "، هو إنسان له رأس ضفدع، وقد تخيلته في طفولتي البعيدة كسحابة صيف، جلسنا على محطة الحافلة، وفقط أنظر إلى عينيه الحزينتين وهو يراقبني في صمت، فهو لم يتعلم الكلام، شعرت بمزيد من البرودة ثم بدأت السماء تمطر.

إنها المرة الأولى التي تمطر فيها هذا الشتاء، لم أحب المطر يوما، فهو دائما ما يذكرني بالشتاء، وطوال ثمانية وعشرين عاما من حياتي حتى اليوم يخبرني الطبيب بأن الشتاء يزيد من حالتي العقلية سوءا، ركبت الحافلة وتوجهت صوب المنزل مع ضفدع، وعندما دخلت للمنزل انطلق صوب غرفتي ممتعضا مني، وجلست أنا بمفردي في الصالة ومعي ملفات تحمل نتائج الفحوصات التي أجريتها بأوامر من الطبيب، وضعتها فوق التلفاز وفتحته وقمت بمشاهدة مباراة كرة قدم معادة قد لعبت منذ أسبوع، انتظرت أمي حتى عادت من عملها في الخامسة، جلسنا في غرفة المائدة وأثناء تناول الطعام قصصت عليها رأي الطبيب، فهو يريدني أن أخضع للصدمات الكهربائية للتخلص من الهلاوس، ونسبة شفائي ضعيفة للغاية.

توقفت أمي عن تناول الطعام، ترك كرسيها ووقفت جانبي، احتضنتني وشعرت بمشاعرها تنساب داخلي، لم تعرف ما ينبغي عليها قوله تحديدا، ثم كتمت دموعها وهمست في أذني

: لا تقلق

انتهينا من تناول الطعام ثم سألتني

: هل أخبرت سمر بهذا الأمر ؟

لم تكن أمي تعرف بأنني قد اتخذت قراري بالفعل بشأن علاقتي مع حبيبتي سمر، لم أجب والدتي وانشغلت بمراقبة ضفدع وهو يحاول تسلق الحائط دون جدوى، كان يرفع قدميه في الهواء بصورة كوميدية للغاية، ليت أمي تراه حتى تضحك معي، كررت أمي سؤالها مرتين ولم أجبها، تركتها وذهبت للجلوس في غرفتي وأغلقت الباب خلفي، وفي الداخل وجدت ضفدع ينام فوق سريري، جلست على سريري وأمسكت بورقة وقلم لأكتب خطابا لسمر، ثم طلبت منها عبر رسالة نصية بأن نتقابل في مساء الغد لتناول الطعام في المطعم الذي نحبه في وسط البلد.

أخذ الخطاب من وقتي حوالي ساعتين، ثم وعندما حل المساء بمزيد من البرودة كنت قد انتهيت منه واسترحت فوق سريري وأنا أتذكر وجه سمر أمامي، وسألت نفسي، لماذا لا أهلوس برؤيتها ؟، ليتني أراها في كل مكان مثل ضفدع، ليتني ألمس شعرها في خيالي ملايين المرات كل يوم، ليتني أنظر إلى عينيها في مرة

أستيقظ فيها من النوم.

في صباح اليوم التالي وجدت رسالة منها تخبرني فيها بأن المعاد يناسبها، سنتقابل في المطعم في حوالي الساعة السابعة، وفي الوقت المحدد كنت هناك واضعا الخطاب بداخل مظروفه الأبيض في جيبي، مرتديا بنطلون قماشي رمادي كانت اشترته لي في عيد مولدي الخامس والعشرين عندما تعرفنا على بعض أول مرة، وفوقه ارتديت قميصا مشجرا ألونه باهتة مثل سماء الشتاء، كل شيء حولي بارد، المقاعد والأكواب الزجاجية، والشبورة تغطي النوافذ الداخلية للمطعم، سمر تحب الشتاء بشدة، خاصة تلك القبعات الصوفية المستديرة التي يرتديها الأطفال، لقد ابتعت لها واحدة تشبه تلك التي ترتديها الفتاة التي تجلس في المقعد المقابل لي، لكنه ليس جميلا عليها مثلما هو جميل مع سمر، كل شيء جميل معها، حتى الشتاء الذي تطاردني برودته في أحلامي يصبح جميلا معها، حتى الخيالات التي أرها جميلة معها، حتى زكام الشتاء الذي يصيبني بالكسل يكون جميلا فقط معها.

وصلت في ملابسها المحتشمة البسيطة، وفوق كتفيها وشاح صوفي لونه الرمادي يشبه النجوم المتناثرة، صافحتها وشعرت بالدفء في كفها، أصابعها البيضاء الرقيقة لمست باطن كفي برقة، ثم افترقت يدانا وجلس كل واحد منا في مكانه، لن أشبع من النظر إلى وجهها أبدا، تناولنا الطعام معا، وقضينا الوقت نتبادل حديثا ثانويا عن فيلم شاهدته مع والدتها بالأمس، كانت شغوفة بالسينما بشدة، خاصة الأفلام الدرامية، أخذت تحرك يديها بعفوية أثناء شرحها لأحداث

الفيلم وعندما لاحظت انتباهي لهذه الحركة ضحكت كالأطفال ثم وضعت كف يدها فوق فمها.

طلبت منها أن نذهب للسينما لكنها رفضت لأن غدا الثلاثاء عليها أن تحضر اجتماعا مهما في الشركة وعليها التحضير له بعناية فهي لا تحب تجاهل أدق التفاصيل، لكنها وعدتني بأن نذهب إلى هناك في نهاية الأسبوع فوافقت دون تردد، خرجنا من المطعم وتمشينا في شوارع وسط البلد، كانت ترشدني لطريق السير المناسب لتجنب الزحام، قائلة " طبيبك قال بأن الزحام خطر عليك، وأنا لن أدعك تمشي في الزحام أبدا "، لقد كانت تتابع حركة المرور على موقع خرائط جوجل في كل مرة نتقابل فيها، وتتخير دائما الأماكن القريبة من محطات الحافلة حتى لا تتركني أستقل مترو الأنفاق بمفردي، مر الوقت بسرعة الصاروخ حتى الساعة العاشرة مساءا، أوصلتني لمحطة الحافلة وهناك أخرجت الخطاب من جيبي وسلمته لها يد بيد وطلبت منها ألا تقرأها إلا عندما تصل للمنزل، قبلت يدها برقة، ثم ودعتها بإشارة من يدي وهي تتجه صوب محطة مترو الأنفاق، وجلست أنا على المحطة لدقائق أنظر للسماء التي لم يولد القمر فيها اليوم، أخرجت هاتفي المحمول من جيبي وأغلقته، ثم ركبت الحافلة التي تقلني لمحطة القطار، أخرجت تذكرة قطار الإسكندرية من جيبي، ودخلت إلى رصيف المحطة وجلست هنا وجواري ضفدع، ثم رأيت أمي تدخل للرصيف وتتجه ناحيتي، وعندما وصل القطار ركبنا القطار معا وأنا أتذكر كل كلمة كتبتها في الخطاب.

" حبيبتي سمر، لقد أخبرني الطبيب بأن حالتي تزداد سوءا، فمنذ وفاة أمي ازدادت الخيالات بشدة، ولم أعد أفرق ما بين الحقيقي والخيالي بشكل واضح، سأسافر لأعيش مع عمتي في الإسكندرية فلم يعد لدي ما يربطني بالقاهرة، وهناك سأخضع لعلاج بالصدمات الكهربائية لمدة ثلاثة أشهر على الأقل، ولن أعود من الإسكندرية مرة أخرى، لقد نسيت أن أخبرك بأنني قد تقدمت باستقالتي من الشركة أيضا، أنا متأسف على رحيلي الذي أعرف بأنه ليس الخيار الأفضل لنا، لكنه الخيار الوحيد الذي وضعته الحياة أمامي، لطالما أردت قضاء حياتي كلها معك، لكن ما ذنبك بالعيش مع مجنون مثلي، ما ذنب أولادنا إذ تزوجنا بأن يجدوا أباهم مضطرب عقليا، لن يجدوا في والدهم ما يفخروا به أمام أصدقاءهم، وعلى الرغم من أنهم سيرثون جمال عينيك وهذا وحده كفيل بأن يسعدني، إلا أنه ليس كافيا لمواجهة هذا العالم القبيح بمفردهم، ليت الحياة بسيطة كلمسة أصابعك الرقيقة، ليتني أعيش في مخيلتك للأبد، وداعا يا عمري. "